حياة أعظم الرسل

عظمة محمَّد في شجاعته

عظمة محمد في شجاعته

كَانَ الْمُصطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ شُجَاعًا فَى صِبَاهُ وَشَبَابِهِ ، شُجَاعًا فِى تَبليغِ رِسَالَةِ رَبِّهِ سِرًّا وَجَهْرًا (بِصَوْتٍ مُرتَفِعٍ) ، بِكُلِّ شَجَاعَةٍ وَصَبرٍ وإِيمَانٍ .

طُلِبَ مِنهُ وَهُوَ صَبِىٌّ أَن يَحلِفَ بَاللاَّتِ وَالْعُزَّى ـــ وَهُمَا مِن آلِهَةِ قُرَيشٍ وَأَصنَامِهَا ـــ فَقَالَ : لَا . إِنَّنِى لَم أَكرَهْ شَيئًا مِثلَ كُرْهِى لَهُمَا ، وَصَرَّحَ أَمَامَ قُرَيشٍ بِكُرْهِهِ لَهُمَا ، وَلَم يُبَالِ غَضَبَ

قُرَيشٍ .

وَذَاتَ مَرَّةٍ خَرَجَ فِى قَافِلَةٍ (جَمَاعَةٍ مُسَافِرَةٍ) إِلَى الْيَمَنِ مَعَ عَمَّيْنِ لَهُ ، وَكَانَتَ سِنُّهُ فِى ذٰلِكَ الْوَقتِ سَبعَ عَشْرَةَ سَنَةً ، فَرَأَوْا مِنَ الْجِمَالِ جَملاً مُتَوحِّشًا جَامِحًا (هَائِجًا مُسْرِعًا) ، فَتَعَرَّضَ لَهُ مُحمدٌ وَهُوَ شَابٌّ ، وَكَبَحَ جِمَاحَهُ (وَجَذَبَهُ إِلَيهِ ، وَجَعَلَهُ يَقِفُ وَلَا يَجرِى) . وَبَعدَ ذٰلِكَ اعتَرَضَ الْقَافِلَةَ فِى رِحلَتِهَا وَادٍ مَملُوءٌ مَاءً، فَخَافَتْهُ الْقَافِلَةُ ، فَتَقَدَّمَ مُحمدٌ بِكُلِّ شَجَاعَةٍ ، وَقَالَ :

اِتْبَعُونِى ، اِتْبَعُونِى . فَتَبِعُوهُ ، حَتَّى مَرُّوا بِسَلامٍ مِن ذٰلِك الْمَكَانِ .

هـٰذِهِ أَمثِلَةٌ قَلِيلَةٌ مِنَ شَجَاعَتِهِ فِى صِبَاهُ وَشَبَابِهِ ، وَلٰكِنَّ الشَّجَاعَةَ النَّادِرَةَ هِــىَ شَجَاعَتُهُ فِى أَدَاءِ رِسَالَتِهِ ، وَالْمُنَادَةِ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحدَهُ ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ الأَصنَامِ بَيـنَ قَومٍ اعتَـادُوا عِبَادَتَهـا تَقلِيـداً لِآبَائِهِــم وَأَجدَادِهِم السَّابِقِينَ ، وَخَاصَّةً حِينَمَا أُمِرَ بالدَّعوَةِ إِلَى الإِسلاَمِ وَمَبَادِئِه جِهَاراً .

فَنَادَى فِى قُرَيشٍ وَغيرِ قُرَيشٍ بِمَا يُنادِى بِهِ

الْإِسلَامُ مِن تَحرِيمِ الرِّبَا — وَهُوَ أَن تُسَلِّفَ غَيرَكَ نُقُودًا بِزِيَادَةٍ مَالِيَّةٍ ، بِأَن تَأْخُذَ مِمَّن تُسَلِّفُهُ أَكْثَرَ مِمَّا أَعطَيتَهُ . كَأَن تُسَلِّفَهُ مِائَةَ قِرشٍ ، وَتَأْخُذَهَا مِنهُ مِائَةً وَعَشَرَةَ قُرُوشٍ — ، وَتَحرِيمِ شُربِ الْخَمرِ وَتَحرِيمِ الزِّنَى ، وَالمَيسِرِ — وَهُوَ لَعِبُ الْقُمَارِ — . وَهٰذِهِ هِيَ المَلَاذُّ الَّتِي يَنعَمُونَ بِهَا فِي حَيَاتِهِم ، وَمَصَادِرُ الثَّروَةِ الَّتِي يَعتَمِدُونَ عَلَيهَا فِي مَعِيشَتِهِم .

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ أَهلُ مَكَّةَ

يَفخَـرُونَ بِـالْأَحسَابِ ، وَالْأَنسَابِ (بَالأُسرَةِ وَالْقَبِيلَةِ) نَـادَى مُحمَّدٌ بِالْمُسَاوَاةِ بَينَ السَّادَةِ والْعَبِيدِ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ فِى الْإِسلَامِ مُتَسَاوُونَ كَأَسنَانِ الْمُشطِ ، وَلَا فَضلَ لِعَرَبِىٍّ عَلَى عَجَمِىٍّ إِلاَّ بِالتَّقوَى وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ . وَقَالَ لِبَنِى هَاشِمٍ ــ وَهُم أُسرَتُهُ ــ لاَ يَجِىءُ إِلَىَّ النَّاسُ بِأَعمَالِهِم ، وَتَجِيئُونِى بِأَنسَابِكُم .

لَمْ يَكْتَفِ الْمُصطَفَى بِالْمُسَاوَاةِ بَينَ الْأَغنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ ، وَالسَّادَةِ (جَمع

سَيِّد) وَالعَبيدِ ، بَل أَمَرَ الأَغنِيَاءَ بِإِعْطَاءِ الفُقَرَاءِ الزَّكَاةَ وَهِيَ حَقٌّ لَهُم ، حَتَّى يَستَطِيعُوا تَحرِيرَ أَنفُسِهِم مِنَ الْعُبُودِيَّةِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ... ﴾ وَقَالَ الرَّحمٰنُ الرَّحِيمُ : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَموَالِهِم حَقٌّ مَعلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحرُومِ ﴾ .

نَادَى الرَّسُولُ بِتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصنَامِ ؛ لِأَنَّهَا لَا تَنفَعُ وَلَا تَضُرُّ ، وَلَا تَسمَعُ وَلَا تُبصِرُ ، وَدَعَا النَّاسَ جَمِيعًا إِلَى عِبَادَةِ اللهِ الوَاحِدِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَوَقَف

وَحدَهُ يُنَادِى بِالإِسلاَمِ بَينَ قَومٍ مِـنَ الظَّالِمِينَ وَالْجَبَابِـرَةِ ، وَهٰـذِهِ شَجَاعَـةٌ لَامَثِيلَ لَهَا .

مَكَثَ مُحمدٌ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيهِ وَسَلَّـمَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ سَنَةً بِمَكَّةَ شُجَاعًا صَابِـرًا يَدعُو قَومَهُ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ ، دِينِ اللّٰهِ ، وَتَغيِيرِ حَيَاتِهِم الدِّينِيَّةِ وَالْاِجتِمَاعِيَّـةِ وَالْمَالِيَّـةِ وَالْبَيْتِيَّـةِ ، وَلَقِـى كَثِيرًا مِـنَ الاِستِهـزَاءِ ، وَالْأَلَـمِ وَالعَـذَابِ لِيَـنشُرَ دَعوَةَ اللّٰهِ وَرِسَالَةَ رَبِّـهِ بَيـنَ قَـوْمٍ مِـنَ

الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَعبُدُونَ الْأَصنَامَ . وَلَم يُبَالِ مَا نَالَهُ مِن مُعَارَضَةٍ وَتَعذِيبٍ وَتَهدِيدٍ . وَهٰذِهِ هِيَ الشَّجَاعَةُ الحَقَّةُ ، وَهٰذَا هُوَ الإِيمَانُ الْحَقُّ بِاللّٰهِ ، والتَّمَسُّكُ بِالحَقِيقَةِ .

شَجَاعَتُهُ فى غَزوَةِ حُنَيْنٍ :

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى شَجَاعَتِهِ النَّادِرَةِ أَنَّهُ فِى يَومِ غَزوَةِ حُنَيْنٍ(١) ، اتَّكَلَ المُسلِمُونَ

---

(١) وَادٍ بَينَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ حَدَثَت فيه غَزوَةُ حُنَيْنٍ . وَكَانَ عَدَدُ المُسلِمِينَ ١٢٠٠٠ وَعَدَدُ الكُفَّارِ ٤٠٠٠ .

عَلَى كَثْرَتِهِم ، فَهُزِمُوا ، ثُمَّ وَلَّوْا مُنهَزِمِينَ ، وَوَقَفَ الرَّسُولُ عَلَى بَغلَتِهِ الْبَيضَاءِ ثَابِتًا ، مُطمَئِنًّا كُلَّ الاِطمِئْنَانِ ، وَهُوَ يَقُولُ :

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ   أَنَا ابنُ عَبدِ المُطَّلِبْ

قَالَ اللهُ الْحَكِيمُ : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ[1] أَعْجَبَتْكُمْ[2] كَثْرَتُكُمْ ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرضُ بِمَا رَحُبَتْ[3] ، ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ[4] . ثُمَّ

---

(١) وَقتَ أن .   (٢) فَقُلتُم لَن نُغلَبَ اليَومَ مِن جَيشٍ قَليلِ العَدَدِ .

(٣) مَعَ رُحْبِهَا وَسَعَتِهَا فَلَم تَجِدُوا مَكَانًا تَطمَئِنونَ إليهِ لِشدَّةِ خَوفِكُمْ .

(٤) مُنهَزِمِينَ .

أَنزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ[١] عَلَى رَسُولِهِ[٢] وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا[٣] ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذٰلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ » .

وَقَد أُعجِبَ الْمُسلِمُونَ بِكَثرَتِهِم ، وَاتَّكَلُوا عَلَى الْكَثرَةِ ، فَلَم تُغْنِ عَنهُم شَيئًا ، فَإِنَّ مُقَدَّمَةَ الْمُسلِمِينَ تَوَجَّهَت جِهَةَ العَدُوِّ ، فَخَرَجَ لَهُم كَمِينٌ كَانَ

---

(١) رَحمَتَهُ وَطُمَأنِينَتَهُ .

(٢) فَثَبَتَ النَّبِيُّ عَلَى بَغلَتِهِ البَيضَاءِ .

(٣) مَلائِكَة .

مُسْتَتِراً فِى مَضَايِقِ الْوَادِى ، وَقَابَلَ المسْلِمينَ بِنِبَالٍ وَسِهَامٍ كَأَنها الْجَرَادُ الْمُنتَشِرُ ، فَرَجَعُوا بِخَيلِهم مُتَقَهْقِرِينَ .

فَاستَمَرَّ رَسُولُ اللهِ ثَابِتًا فِى مكَانِهِ ، راكِبًا بَغلَتَهُ فِى ميدَانِ القِتالِ . وَثَبَتَ مَعَهُ قَلِيلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ، مِنهُم أَبُو بَكرٍ ، وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ وَعَمُّهُ الْعَبَّاسُ وَابنُ عَمِّهِ أَبُو سُفيَانَ بنُ الْحَارِثِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ لِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ — وَكَانَ مُرتَفِعَ الصَّوْتِ — نَادِ الأَنصارَ

يَاعَبَّاسُ ، فَنَادَاهُم بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا مَعشَرَ (جَمَاعَـــةَ) الْأَنصَارِ ، يَـــا مَـــعشَرَ الْأَنصَارِ . فَجَـــاءُوا مُسرِعِيـــنَ حِينَمَـــا سَمِعُوا صَوْتَهُ . فَنَظَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ ، حَتَّى اجتَمَعَ حَولَهُ جَمْعٌ عَظِيمٌ مِنهُـم ، وَأَنـزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ وَطُمَأْنِينَتَهُ عَلَى رَسُولِـهَ وَعَلَـى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا مِنَ المَلَائِكَةِ لَـم يَرَوْهَـا . فَرَجَـعَ المُسلِمُـونَ عَلَـى عَدُوِّهِم يَداً وَاحِدَةً ، وَبَدَأَ الْقِتَالُ ثَانِيَةً ، فَتَفَـــرَّقَ المُشرِكُـــونَ ، وَتَقَهقَـــرُوا ،

وَتَرَكُوا أَموَالَهُم وَنِسَاءَهُم وَأَولَادَهُم ،
وَتَبِعَهُمُ الْمُسلِمُونَ يَقتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ
الأَعدَاءَ . فَأَخَذُوا النِّساءَ والْأَولَادَ ،
وَأَسَرُوا كَثِيرًا مِنَ المُحَارِبِينَ . وَفِى وَقتِ
اشتِدَادِ الْحَربِ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ قَبضَةً مِنَ
التُّرابِ ، فَرَمَى بِهَا ؛ فَوَصَلَ التُّرَابُ إِلَى وَجْهِ
كُلِّ كَافِرٍ . وَفِى ذٰلِكَ مُعجِزَةٌ لِلرَّسُولِ
صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مِنَ اللهِ .
﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ اللهَ
رَمَى ﴾ . ثُمَّ قَالَ الرَّسُولُ : « اِنهَزَمُوا

وَرَبِّ مُحمدٍ » . فَضَعُفَت قُوَّةُ الْأَعدَاءِ ، وَرَجَعُوا مُنهَزِمِينَ إِلَى الْوَرَاءِ . وَهَرَبَ مَن هَرَبَ مِنهُم ، وَتَرَكُوا نِساءَهُم وَأَولَادَهُم وَأَموَالَهُم .

ثُمَّ أَمَرَ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِجَمْعِ الغَنَائِمِ ، فَكَانَت أَربَعَةً وَعِشرِينَ أَلفَ بَعِيرٍ (جَمَلٍ) ، وَأَكثَرَ مِن أَربَعِينَ أَلفَ نَعجَةٍ ، وَأَربَعَةَ آلَافَ أُوقِيَّةٍ مِنَ الْفِضَّةِ . وَقَسَّمَ الرَّسُولُ الْغَنَائِمَ بينَ الْمُسلِمينَ . وَقَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، وَاللهِ مَالِى مِن

غَنِيمَتِكُم إلاَّ الْخُمْسُ . وَالْخُمْسُ مَرْدُودٌ عَلَيكُم » . وَقَدْ أَعَزَّ اللهُ الْإِسلاَمَ ، وَخَذَلَ أَعدَاءَهُ . وَإِنَّ هَزِيمَةَ هَوَازِنَ وَثَقِيفٍ كَانَت خَاتِمَةً لِحُرُوبِ الْعَرَبِ . وَاعتَنَقَ الْجَمِيعُ الْإِسلاَمَ فِى النِّهَايَةِ . وَرَدَّ عَلَيهِمُ الرَّسُولُ نِساءَهُم وَأَبنَاءَهُمْ . وَقَالَ لَهُم : أَمَّا الَّذِى لِى وَلِبَنِى عَبدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُم . وَرَدَّ لَهُمُ الْمُسلِمُونَ مُعظَمَ مَا أُخِذَ مِنهُم .

وَقَالَ عَلِىُّ بنُ أَبِى طَالِبٍ : كُنَّا إِذَا

حَمِيَ الْبَأْسُ (اِشتَدَّتِ الْحَربُ) اِتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللّٰهِ (حَفِظْنَا أَنفُسَنَا بِالاحْتِمَاءِ بِهِ) ، فَمَا يَكونُ أَحَدٌ أَقرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنهُ .

فَالرَّسُولُ كَانَ عَظِيمًا فِي شَجَاعَتِهِ ، وَثَبَاتِهِ فِي جِهَادِهِ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ ؛ فَقَد ثَبَتَ ثَبَاتَ الْجِبَالِ الراسِيَاتِ ، فِي كُلِّ غَزوَةٍ مِنَ الْغَزَوَاتِ لِبُطُولَتِهِ وَشَجاعَتِهِ .